بسم الله الرَّحمن الرَّحيم

الحمدُ لله ربِّ العالمين، وأشهد أنْ لا إلـٰه إلَّا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمَّدًا عبده ورسوله، صلَّىٰ الله وسلَّم عليه وعلىٰ آله وأصحابه أجمعين..

أمَّا بعدُ..

هٰذه وقفةٌ مع دعوة عباد الرَّحمن الَّذين أضافهم اللهُ تبارك وتعالىٰ لنفسه تشريفًا لهم وتعليةً لمقامهم بذكر اسمه الرَّحمن؛ لعظم نصيبهم وحظِّهم من نيْل رحمةِ الله تبارك وتعالىٰ، فَهُم الحقيقون بها وأهلُها، ولهٰذا شرَّفهم الله ﷻ بهذه الإضافة العظيمة الكريمة (عبادُ الرَّحمن)، وذكر من دعائهم جلَّ شأنه قولهم: ﴿وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا ٧٤﴾[الفرقان]، وهذه دعوةٌ عظيمة يلهجون بها ويدعون الله ﷻ أن يُيسِّر لهم هٰذا المَطلب العظيم والمقصد النَّبيل، ﴿وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾.

والكلام علىٰ هٰذه الدَّعوة العظيمة المباركة التي يدعو بها عبادُ الرّحمن من جانبين:

الأول: قولهم: ﴿وَٱجۡعَلۡنَا﴾، فهٰذا فيه فائدة عظيمة ألا وهي أنَّ شيئًا ممَّا يرجوه العبد ويؤمِّن نيله لا يكون إلَّا أن يكون الله ﷻ هو الذي يجعله، وهو الذي يضعه، وهو الذي ييسِّره، فالأمر كلُّه بيد الله، وما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، فلا يكون العبدُ من أهل الإيمان إلَّا إذا جعله الله منهم، ولا يكون من أهل الهداية إلا إذا جعله الله منهم، ولا يكون من أهل الصَّلاة إلا إذا جعله اللهُ منهم، ولا يكون من أهل الإمامة في الدِّين إلا إذا جعله الله ﷻ من الأئمة في الدِّين، ولا يمكن أن ينال العبدُ أيَّ فضيلة أو أن

يحصِّل أيَّ بابٍ من أبواب الخير أو عمل من أعمال البر إلَّا إذا يسَّره الله ﷻ له، قال الله جل شأنه: ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ﴾[النور:٢١]، وقال جلَّ شأنه: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ٧ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ﴾ [الحجرات]، وكان الصَّحابة رضي الله عنهم يقولون في رَجَزِهم:

والله لولا الله ما اهتدينا ولا صمنا ولا صلينا

وفي رواية: ولا تصدَّقنا ولا صلَّينا.

فالأمر كلُّه بيد الله، ولهٰذا قالوا في دعائهم: ﴿وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ﴾، في دعاء إبراهيم الخليل عليه السَّلام ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ ٤٠﴾[إبراهيم]، ولهٰذا جاء في دعاء بعض السَّلف وهو مطرِّف بن عبد الله بن الشخِّير من علماء التابعين قال كلمة عظيمة جدًّا في هٰذا الباب قال: لو أُخرج قلبي من صدري ووضع في كفِّي اليُسرىٰ وجيء بالخيرات كلِّها ووُضعت في كفِّي اليمنىٰ لم أستطع أن أضع شيئًا منها في قلبي إلَّا أن يكون الله هو الذي يضعه.

ولهٰذا يلجأُ المُسلم الصَّادق إلىٰ الله ﷻ في كلِّ مطالبه وجميع حاجاته الدِّينية والدُّنيوية، ولا يمكن أن يصلُح شيءٌ منها إلَّا إذا أصلحه الله «**اللَّهمَّ أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي، وأصلح لي آخرتي التي فيها معادي**» لا تَصلُح الدُّنيا ولا الدِّين ولا الآخرة إلا إذا أصلحها الله ﷻ لك، وفي الدعاء الآخر قال: «**وأصلح لي شأني كله ولا تكلني إلىٰ نفسي طرفة عين**» فالعبد ضعيف وعاجز وأمره بيد

سيِّده ومولاه تبارك وتعالىٰ، ولهٰذا لابدَّ من اللُّجوء إلىٰ الله دومًا وأبدًا، ولابد من الاستعانة بالله، فالاستعانة وسيلة لا تُنال المطالب إلا بها، ولا تتحقَّق المقاصد إلَّا بها، فهي وسيلة لابد منها، ولهٰذا قال ﷺ لمعاذ: «**إنِّي أحبك فلا تدع دبر كل صلاة أن تقول: اللَّهمَّ أعني علىٰ ذكرك وشكرك وحسن عبادتك**» فلما علم عباد الرَّحمن مكانة الإمامة في الدِّين وأنَّها لا تُنال إلا بمنِّ الرَّحمن ﷻ وفضله جلَّ شأنه ألحُّوا عليه بالدعاء: ﴿وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾.

الجانب الآخر: في هٰذا المطلب العظيم الذي يسألون الله ﷻ أن ييسِّره لهم وأن يجعله من أهله وهو الإمامة في الدِّين ﴿وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾، والإمامة في الدِّين رُتبة عليَّة، ومنزلة شريفة، وإذا أكرم اللهُ ﷻ عبدَه بِنَيْلها والفوز بها فهي كرامةٌ عظيمة ومنَّة جسيمة من أعظم المنن وأجل الهبات والعطايا.

والإمامة في الدِّين؛ أي: أن يبلغ العبد رُتبة يؤتمُّ به في الدِّين، ويكون قدوة للصَّالحين، وأسوة لعباد الله، بأن تجتمع فيه صفات الخير، بحيث يكون للنَّاس قُدوة في الخيرات والطَّاعات واجتناب المحرَّمات؛ لاجتماع صفات الخير فيه، هٰذا هو الإمام في الدين، فالإمامة في الدِّين أن يكون العبد اجتمعت فيه صفات الخير بحيث أصبح قدوةً للنَّاس وأسوةً لعباد الله.

إذا أرادوا أن يأتسوا به في الفرائض، في اجتناب المحرَّمات، في أفعال الخيرات، في النُّصح لدين الله، في الدَّعوة إلىٰ الله، إلىٰ غير ذلك.. يجدون قدوةً لهم؛ ﴿وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾، ولا يكون العبد إمامًا للمتَّقين حتىٰ يأتم بالمتقين الذين قبله، فإذا ائتمَّ هو

بالمتَّقين ائتمَّ به بعده المتّقون، ولهٰذا فسَّر مجاهد رَحِمَهُ اللَّهُ قوله: ﴿وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ أي: اجعلنا مؤتمِّين بالمتَّقين، وهٰذا التَّفسير منه رَحِمَهُ اللَّهُ للآية بهذا؛ لأن العبد لا يكون إمامًا للمتَّقين حتىٰ يأتم هو بالمتقين، فإذا ائتم بهم صار إمامًا للمتَّقين بعده وأسوةً لهم.

وفي الآية الدعاء: ﴿وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ إذا دعا العبد ربَّه ﷻ بهذه الدَّعوة وألحَّ عليه جل شأنه في نيل هٰذا المطلب عليه أن يُتبع هٰذا الدُّعاء ببذل الأسباب.

وتكاد تكون الأسباب لنيل الإمامة في الدِّين مجتمعة في قوله ﷻ: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ٢٤﴾ [السَّجدة]، وتأمَّل أولًا قوله: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ أَئِمَّةٗ﴾ مع دعاء عباد الرَّحمن: ﴿وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ فلا يكون من الأئمة إلَّا إذا جعله مطهرا، فقوله ﷻ: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ٢٤﴾ تدلُّ هٰذه الآية الكريمة علىٰ أنَّ لنيل الإمامة في الدِّين أربعة أسباب اجتمعت في هٰذه الآية الكريمة:

السَّببان الأوَّل والثَّاني: في قوله: ﴿يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا﴾:

أمَّا الأوَّل: فهو عنايتهم بالدَّعوة والهداية إلىٰ دين الله، ونُصح النَّاس، وتعليم الخير، والدَّلالة إلىٰ طاعته ﷻ، والتَّحذير من المحرَّمات ومن المعاصي والآثام، ﴿يَهۡدُونَ﴾ أي: يعملون علىٰ نهاية الناس واستصلاحهم.

والأمر الثَّاني: مأخوذٌ من قوله: ﴿بِأَمۡرِنَا﴾ أي: لا بالأهواء، ولا بالآراء، ولا بالمحدثات، ولا بالمبتدعات، وإنَّما بأمر الله، وأمر

الله ﷻ أي الذي شرعه وأذن به ﷻ، ولهٰذا قال ﷺ: «من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو ردّ» أي: مردود علىٰ صاحبه، غير مقبول منه.

فإذن الصفة الأولىٰ والسَّبب الأوَّل: **الدَّعوة** والعمل علىٰ هداية النَّاس وإصلاحهم.

السَّبب الثَّاني: أن تكون أعمال الإنسان ودعوته إلىٰ الله ﷻ وَفْق شرع الله ﷻ ﴿بِأَمۡرِنَا﴾.

السَّبب الثَّالث: الصَّبر، والصبر هو حبس النَّفس عن المعاصي، وحبسها علىٰ الطَّاعات، وحبسها أيضا عن الجزع والتَّسخُّط في الأقدار المؤلمات.

والسَّبب الرَّابع: اليقين ﴿لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾، واليقين هو حصول الإيمان مع زوال الشَّك والرَّيب وانتفاؤه وكمال العلم وتمامه، بحيث لا يكون في القلب أدنىٰ شك أو ريب، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ﴾ [الحجرات:١٥].

فجمعت هٰذه الآية الأسباب الأربعة العظيمة التي تُنال بها الإمامة في الدِّين.

وللعلَّامة ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ تقريرٌ بديع وتعليقٌ مفيد حول هٰذه الآية الكريمة وحول هٰذا الموضوع بعمومٍ في كتابه أو رسالته القيّمة التي سبق أن قُرئت هنا في مجالس عديدة وهي بعنوان «رسالة ابن القيم إلىٰ أحد إخوانه» وهي رسالة حقيقةً يُنصح طلبة العلم بقراءتها مرَّات وكرَّات لعظم فائدتها وكبر نفعها.

والله أعلم وصلىٰ الله وسلم علىٰ رسول الله.

﴿وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾

كلمة

للشيخ عبد الرزاق البدر

حفظه الله

النسخة الإلكترونية الأولىٰ

سالم
موقع التفريغ
للدروس العلمية والبحوث الشرعية
www.attafreegh.com